أولا:أهمية التجارة العابرة للصحراء

تعود العلاقات التجارية بين سكان شمال الصحراء وجنوبها إلى عصور قديمة، وذلك لجلب الرقيق والذهب، ففي القرن الخامس قبل الميلاد زار إفريقيا المؤرخ اليوناني هيرودوت وكتب أن سكان الجارامانتس (سكان فزان) كانت لهم عربات تجرها أربعة أحصنة يصطادون بها السود. وكان هذا قبل استعمال الجمل في الصحراء،[1] وقد احتكر القرطاجيون التجارة الصحراوية، فقد تحصلوا على الياقوت من فزان، وكان هذا الياقوت يعرف في أوروبا بحجر القرطاجيين، وكانوا يقاضون سلعهم بالتبر النفيس، وفي القرن الثاني قبل الميلاد عندما سقطت قرطاج، توغل الرومان نحو الجنوب للسيطرة على التجارة الصحراوية.[2]لقد كانت تجارة الذهب والرقيق بمثابة دم الحياة لتجارة المغرب والسودان، وكانت قديما تمر عبر طريقين طريق جارمانتس من فزان إلى طرابلس وطريق سجلماسة إلى تغازة وغانة.

وفي العهد الإسلامي بلغت التجارة العابرة للصحراء أوج ازدهارها، وكثرت معابرها، ورافقها العلماء والدعاة مما ساهم بشكل رئيس في نشر الإسلام ببلاد السودان، وقد أطلعتنا المصادر مثل ابن حوقل والبكري والإدريسي على حجم التجارة بين بلاد السودان والمغرب، والتي هيمنت عليها القبائل الصنهاجية، فقد امتدت مضاربهم من جبال درنة إلى حدود نهر السنغال والنيجر، ومن المحيط الأطلسي غربا إلى غدامس شرقا، فقد هيمن الصنهاجيون على المادة الرئيسية للتجارة وهي الملح، وفرضوا ضرائب قارة على الحمولات التي تمر عبر مجالهم ذهابا وإيابا، ثم تقلص دورهم في ما بعد لصالح الإمارات السنية والخارجية والشيعية حيث أصبحوا يتصلون مباشرة بالممالك السودانية دون الوساطة الصنهاجية[3].

ساهم الخوارج بدور فعال في النشاط التجاري بين بلاد السودان والمغرب الأوسط وعاصمته تيهرت، وقد ربطوه بدول المشرق الإسلامي عن طريق البحر المتوسط، وتكاد تنحصر البضائع في ذلك الوقت في الذهب والعبيد، وقد كانت إمارة بني رستم تتحكم في المسالك التجارية الصحراوية،

[1] زاهر رياض، **الممالك الإسلامية في غرب إفريقيا**، وأثرها في تجارة الذهب عبر الصحراء

[2] خالدي مسعود، مرجع سابق،

[3] دة. زوليخة بن رمضان، مرجع سابق

بحيث ان الطرق الصحراوية كلها تؤدي إلى تيهرت، وبحكم بوقعها الجغرافي الذي يربط مدن المغرب ببلاد السودان، أفرز حركية تجارية ساهمت في ثراء العمران.[4]

ظهرت عدة ممالك إسلامية، منها غانا التي امتدت على مساحة واسعة من السودان الغربي، فشملت مناجم الذهب في الجنوب ومناجم الملح في الشمال، وقد ساعدها موقعها على تحقيق ثراء لامثيل له في النصف الأول من القرن الخامس الهجري، إذ استفادت من تدهور أوضاع قبائل صنهاجة الصحراء، والصراعات المذهبية لإمارات المطلة على الصحراء وفرضت قيودا على جميع المبيعات كما عملت غانة على تحديد كميات الذهب المصدرة، وجعلت من نفسها وسيط تجاري، يقوم بإعادة توزيع الملح في الجنوب والذهب في الشمال. ماجعلها محطة تجارية هامة في غربي إفريقيا. فكانت العاصمة كومبي صالح حلقة اتصال بين الشمال والجنوب، وكانت تعج بتجار الشمال، الذين استقر بعضهم هناك لرعاية تجارتهم.

نجد عبر تاريخ المنطقة هناك سجال في السيطرة على التجارة بين الشمال والجنوب، فقد ضعفت غانا في القرن السادس وسيطر المرابطون، بينما في القرن السابع والثامن الهجريين(14/13م) هيمنت قبائل الماندي وأسسوا مالي على حساب غانا وسيطرت على مناجم الملح في الشمال، ازدادت البضائع المتبادلة بين الشمال والجنوب مما زاد من ثراء مالي.[5] لكنها لم تستطع المحافظة على هذه السيطرة التي كانت في عهد ملوكها العظام، فقد كانت تستورد مواد غذائية وبضائع كمالية مقابل كميات كبيرة من الذهب، ولم تطور مالي أسلوب التجارة الذي ظل يعتمد على المقايضة بدل الاعتماد على النقد. بينما تجار الشمال وبخاصة التلمسانيين فبعد أن فقدوا السيطرة على تجارة الملح، اعتمدوا على أسلوب جديد من التجارة يقوم على تنويع البضائع، فقد أولى أبو حمو االزياني خلال القرن الثامن عنايته للتجارة السودانية حتى أنه فكر في طرد جميع التجار عدا الذين يتاجرون مع بلاد السودان ببضائع زهيدة مقابل الذهب. كما شهدت الفترة دخول البضائع الأوربية إلى الأسواق المغربية وكثر الطلب عليها من قبل السودان، فأصبح المغاربة وسطاء والمستفيد الوحيد هم الأوربيين وانتهت هذه الوساطة بالكشوف الجغرافية.

---

[4] أحمد محمد إسماعيل أحمد الجمال، **تاريخ مدينة أودغشت ودورها في حركة التجارة بين المغرب وإفريقيا جنوب الصحراء**.

[5] المرجع نفسه

لم ينقطع التأثير المغربي في غربي إفريقيا فقد كانت المجتمعات الجديدة وبخاصة في الشمال تقوم بنشر الإسلام ومنها التكرور والهوسا والفولاني، فقد كان التجار ينزلون إلى كبرى المراكز التجارية ويحتكون بالسودان ويؤثرون فيهم بنظافتهم وأمانتهم وسلوكهم الشخصي، مما ينتهي بدخول السودان إلى الإسلام[6]. وبعض هؤلاء التجار كان يجمع بين التجارة والتعليم، فإذا استقر به المقام أنشا مدرسة لتعليم القرآن[7].

[6] حسن أحمد محمود، **الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا**.

[7] المرجع نفسه، ص.56